

طريق الحج المصري في أوائل العهد العثماني

■ بقلم الاستاذ الدكتور سامي الصقار

♦ أولاً، تمهيد:

كنت قد اقتنيت كتاباً ضخماً يقع في ثلاثة مجلدات، مجموع صفحاتها (٢٣١٣) صفحة، وذلك أيام وجودي في الرياض، وهو بعنوان «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطرق مكة المعظمة» تأليف عبد القادر بن محمد الانصاري الجزيري الحنبلي، المتوفى حوالي عام ٩٧٧هـ، (وفقاً لما ذكره بركلمان والزركلي، انظر ص ١٨ من الكتاب).

وقد تولى نشره حمد الجاسر سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ولكن زحمة العمل لم تسمح لي بفرصة لقراءته حتى نسيته، لكن الله سبحانه هداني اليه مؤخراً عندما كنت أبحث عن موضوع لمقالة تصلح لمجلتنا الغراء «هدي الاسلام».

عرفها المؤلف معرفة شخصية، ومتضمناً من المعلومات ما لا بد من معرفته من مناسك الحج على المذهب الحنبلي وهو مذهبه.

وقبل الدخول في الموضوع الذي اردته لمقالتي، وهو طريق الحج المصري، رأيت من المفيد ايراد بعض الملاحظات التي لفتت نظري، وانا أقرأ بعض صفحات هذا الكتاب،

فأكبت على قراءته في الليل والنهار، وحررت ما وجدت فيه من مادة مما يتعلق بطريق الحج المصري في أوائل العهد العثماني، وهي الفترة التي عاشها المؤلف وهو يعمل كاتباً لديوان «إمرة الحج» في القاهرة، اذ وجدته كتاباً جامعاً لأمر الحج وإمرته وطرقه ومحطات الرحيل والنزول التي

عن الجمال التي تمرض وتلك التي تموت، ولحمل فقراء الحجاج ممن لا يقوى على مواصلة السير على قدميه وللعجزة عند الضرورة، وكذلك لنقل الماء لسقيا العطشان وإغاثة المنقطع (ص ١١٩٩).

٥- ان اعداداً كبيرة من الأفارقة المسلمين الذين تسميهم المصادر التاريخية «التكرور» كانوا يأتون بالآلاف لأداء الفريضة، بل كان عدد من كبار ملوكهم يأتون للحج وينفقون اموالاً جسيمة لكثرة الذهب في بلادهم، وقد ركز المؤلف على واحد منهم سماه السلطان ادريس بن علي «ملك برنو» اكبر ملوك التكرور الذي حج في سنة ٩٧٢هـ ولقي الحفاوة والتكريم من حكام مصر (ص ١٧٠٥-١٧١٠).

٦- ركز المؤلف على الصعوبات والأخطار التي يتعرض لها طريق الحج، وذكر ما فيه من الآبار والبرك والمحارس (ص ٢٢٩-٢٣٤ و ٢٣٧-٢٤٥ و ٢٤٩-٢٥٦ على سبيل المثال).

٧- يؤكد الجزيري على ان اعتداءات العربان على الطريق والقوافل، سببها هو قطع العوائد والرسوم المقررة لهم من قبل الدولة، رغم حاجتهم الماسة لها (ص ٢٥٨-٢٥٩ و ٢٨٠).

اذ خشيت ان تضيع هذه الملاحظات في ثنايا الحديث عن مراحل الطريق، وما يحدث فيه، وهي على ترتيب ورودها في الكتاب:

١- عاصر مؤلف كتاب «الدرر الفرائد» السلطان العثماني سليمان القانوني، وقد ذكر له مآثر جليلة في العمائر الجميلة في الحرمين الشريفين وفي طريق الحج المصري (ص ١٠١-١٠٤).

٢- خصص المؤلف شطراً من مقدمته لأخبار من حج على قدميه العديد من المرات (ص ١١٣).

٣- إمرة الحج ولاية سياسية وتدبير وهداية، لأنها من اجل المراتب الدينية وقد تولاها الرسول ﷺ بنفسه عندما حج بالناس في السنة العاشرة للهجرة، ومارسها من بعده الخلفاء (ص ٢٢٥-٢٢٦).

ولذلك يحظى منصب «أمير الحج» بمكانة عالية، ويحسد من يتولاه، بل بلغ التحاسد ذروته بين الأمير ووالي مصر على اتساع ولايته (ص ١١١-١١٣)، وسوف اتناول بإذن الله هذه الولاية لبيان عظم مهمتها.

٤- من واجبات إمرة الحج تهيئة عدد من الجمال للاحتياط من اجل تلافي العوض

٨- جرى العرف على تسيير «المحمل الشريف» لنقل كسوة الكعبة المشرفة (ص ٣٠٩) ومن تقاليدہ ان يقبل شريف مكة «خف الجمل» الذي يحمل المحمل، وقد صدر مرسوم سلطاني في حج سنة ٨٤٣هـ بإعفائه من التقبيل، مما استوجب تقديم الشكر الى السلطان (ص ٧٢٧).

٩- وجود ما يسمى الزيارة الرجبية، ويسمىها المؤلف «حجاج الرجبية» وقد ضمت سنة ٨٤٨هـ، قافلة الزوار (٤٠٠٠) جمل، وكان برئاسة امير للركب، هو ملك الشرق المدعو «شاه رخ» احد ملوك الهند الذي حمل معه كسوة للجدران الداخلية للكعبة (ص ٧٣٣).

١٠- حج محمل بغداد سنة ٨٥٠هـ، في هيئة عظيمة، ارسله أحمد شاه بن يوسف صاحب (توريز - ولعل المقصود تبريز عاصمة اذربيجان آنذاك) لاستيلائه على بغداد في تلك السنة، وصحبته في الركب نحو (١٠٠٠) زاملة، وحج في تلك السنة أحد وزراء الدولة العثمانية، (ولم تكن الحجاز تحت الحكم العثماني) وحمل معه مالاً جزيلاً قام بتوزيعه في أهل الحرمين (ص ٧٣٤).

١١- زينت القاهرة من اجل الاحتفال

بدوران المحمل في شوارعها سنة ٨٥٦هـ بعد ان أبطل الدوران قبل سنوات، وكان احتفالاً كبيراً يتخلله ألعاب بالرمح وخيول تحمل الاجراس ومشاهد تمثيلية فكاكية (ص ٧٤٠-٧٤١)!!

١٢- في سنة ٨٥٦هـ خطف قطاع الطرق من العربان جميع حجاج التكرور، بسبب اهمال السلطة، ومما زاد في خطورة أولئك العربان «وبعضهم من عرب الحجاز» انهم حذقوا استخدام البنادق، وصاروا يصنعون البارود وبعض قطع السلاح، وهم في غاية الكثرة على حد قول المؤلف (ص ٩٢٣).

١٣- ينقسم الحجاج أحياناً، فيقفون في يومين في عرفات، كالذي حصل في سنة ٨٦٤هـ (ص ٧٤٢-٧٤٥)، اذ يقع الخلاف في تحديد أول ايام ذي الحجة، مما يترتب عليه خلاف في تحديد يوم عرفة (ص ٩٢٠).

١٤- تعدد المحامل التي ترد الى مكة، مثل محمل العراقيين الذي لا يكاد ينقطع، ومحمل الكركين في السنوات (٧٤٩-٧٥١)، ٧٥٨، ٨٦٩، ٨٧١، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٩٣، وعادة ما تقع مخاصمات بين اصحاب المحامل كالذي حدث في سنتي ٨٧٦، ٨٧٧هـ، عندما تعرض ارباب المحملين الشامي والمصري، للمحمل العراقي، ومحاولة منعه من دخول

مكة، وشارك في تلك المضايقات أمير الحج المصري نفسه، وشريف مكة، حتى انهم اعتقلوا أمير الحج العراقي، وكبّلوه بالسلاسل، وصادروا محمله، بل أخذوه بما فيه من كسوة الكعبة والزينات (ص ٧٥٤).

ولكن أمير الحج المصري سمح سنة ٨٨١هـ للمحمل العراقي بدخول مكة، ولكنه منعه من الصعود الى عرفات، وفي سنة ٨٨٦هـ تم منع المحمل من دخول مكة مع أمير الحج العراقي، وصادر المحمل وأسر أمير الحج العراقي، وأخذهما معه الى مصر!! (ص ٧٥٨-٧٥٩)، كما كان يقع النزاع احياناً بين الركبين المصري والشامي حول السبق في النزول من عرفات، كالذي حصل في سنة ٩٦٩هـ وسنة ٩٧٠هـ.

١٥- في سنة ٩١١هـ بطل الحج من مصر بسبب افتقاد الأمن لوقوع الخلاف بين الطامعين في تولي اماره مكة من الاشراف، وكذلك بين الطامعين في إمارة ينبع، مما حمل السلطان المملوكي على تجريد حملة عسكرية سنة ٩١٢هـ، لتأديبهم وتأمين الأمن للحجاج (ص ٧٩٠-٧٩١).

١٦- قام الوالي العثماني في مصر (بعد ان اصبحت ولاية عثمانية) ابتداءً من سنة ٩٢٦هـ، باتخاذ تدابير حازمة لحماية ركب

الحاج المصري من عدوان القبائل، بتعزيز القوة العسكرية لتأمين الحماية، وبتخصيص نفقات مالية مجزية توزع على ابناء القبائل التي يمر بها طريق الحج (ص ٨١١-٨١٣).

هذا ويستفاد من كتاب «الدرر» كثرة وقوع العدوان على الركب في عهد المماليك، واختفاء ذلك تقريباً في العهد العثماني، حيث التزمت القبائل بالسلم وعدم التعرض بل وبالتعاون مع إمرة الحج، علاوة على قيام العربان بعرض ما لديهم من مواد غذائية من انتاج أنعامهم، لبيعها للحجاج، مما أدى الى تحسن أوضاعهم المعاشية، خاصة وهم ينتفعون بأجور جمالهم، مثلما ينتفعون بأجور «الدرك» التي يتقاضونها من امرة الحج لحراس الركب عند مروره بأراضيهم (ص ١٢١٦-١٢١٧).

في الواقع ان الدولة العثمانية خصصت مبالغ كبيرة لنفقات ركب الحاج (ص ٢٦٨-٢٦٩) لتمكينه من معالجة هذه المواقف.

١٧- يرصد الكتاب ظاهرة المبالغة في الانفاق على مظاهر الفخفة للركب، حتى بلغت النفقات في بعض السنين أكثر من (١٥٠) ألف دينار ذهباً، (انظر احداث سنة ٩٤٠هـ وغيرها ص ٨٣٥-٨٣٧، ٨٤٠، ٨٤٤).

ولم يقتصر الاسراف على الجانب

«درك البحر» وهي المسؤولة عن حفظ الأمن في الجزر والسفن (ص ٣٧٢ و ١٣٦٣ -١٣٨٧).

٢٠- جرت العادة ان يصحب مركب الحاج امام ومؤذن وميقاتي وحكيم «طبيب» وجراح ومعهم الأدوية التي تصرف لكل محتاج مجاناً، وكذلك يصحبها بيطار وقاض ونجار وأدلاء وسياف لتنفيذ حد القتل، وكذلك بعض الشعراء، هذا وللميقاتي آلة تسمى المنكاب، وهي بمثابة الساعة لضبط اوقات الصلاة (ص ٣٤٠-٣٤٢، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٨-٣٧٠، ٤٢٤).

■ ثانياً، ديوان الحاج:

يحسن بي قبل بدء الحديث عن ديوان الحاج، أن أشير الى اهتمام الجغرافيين المسلمين بشبكة الطرق التي كانت تربط بين أمهات المدن في العالم الاسلامي، ولا سيما بمكة المكرمة وبالعاصمة الخلافة بغداد، وقد كان طريق الحج يحظى باهتمام خاص لما تحتله مكة المكرمة والمدينة المنورة من مكانة متميزة لدى المسلمين، ولا سيما ارتباطهما بفريضة الحج، وبرز هذا الاهتمام في كتب الرحلات ولا سيما رحلات مسلمي الاندلس والمغرب، كابن جبير وابن بطوطة والعايشي وأمثالهم.

الرسمي فحسب، بل ان الافراد كانوا يتسابقون في المزيد من مظاهر الترف، من ذلك مثلاً ان قاضي مصر -عندما قصد الحج بعياله- احتاج الى (١٠٠) جمل، اما زوجة والي اليمن، فإنها احتاجت لحجها (١٢٠) جملاً (انظر احداث سنتي ٩٦٩-٩٧٠هـ ص ١٠٢٧-١١١٤).

١٨- ان ركب الحاج لا يقتصر على الحجاج، بل يشمل الركب اعداداً من التجار واحمالهم من البضائع مما يزيد في طمع العربان في نهب القافلة أحياناً (ص ٩١٩).

١٩- بذلت الدولة جهوداً كبيرة من أجل تأمين الأمن في طول الطريق، فقسمة الى اربعة قواطع، وجعلت مهمة حفظ الامن في كل منها على عاتق رؤساء القبائل القاطنة في كل قاطع منها، وسميت تلك المهمة «درك»، وأولها «درك النقب» وهو لمجموعة من بني عطية، وقد افاض الجزيري في الحديث عن حدود كل مجموعة منها وذكر ما لها من مخصصات رسمية، ويضيف الى ذلك ما يسمى «درك المبشر» وهو لقبيلة الحويطات، ويذكر ما لها من مخصصات، أما المنطقة الثانية من الدرك فهي لبني عقبة، وهناك منطقة تسمى «دار السلطان» وهي في الحجاز، فإن الدرك فيها لقبيلة «بلي»، وعلاوة على ذلك هناك طائفة تسمى

في الحقيقة ان الجغرافيين المسلمين منحوا طرق الحج اهتماماً خاصاً، وحصروها بأربع جهات، وهي العراق والشام ومصر واليمن، وكل منها يخدم أبناء القطر، المنبعثة منه تلك الطرق وابناء المناطق الواقعة وراءه، فالعراق مثلاً هو مركز تجمع حجاج المشرق، ومصر لحجاج المغرب، وهكذا.

وأثناء عملي في التدريس اقنعت احد طلابي باعداد رسالته لنيل الدكتوراه بدراسة طرق الحج وتنظيماته «كإمرة الحاج» وآثارها السياسية والاقتصادية في جزيرة العرب، ففعل ونال درجة الدكتوراه في سنة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م. ولكن الرسالة على حد علمي لم تشر حتى الآن.

اما بالنسبة لديوان الحج، فيبدو ان حكام المسلمين ادركوا ضرورة الاهتمام بطرق الحج المؤدية الى الحجاز، وهناك إشارات مبكرة الى العناية بتلك الطرق، ففي أحداث سنة ١٠٤هـ، «اي في العصر الأموي» خبر يقول: ان الاميال ضربت في تلك السنة بين الكوفة ومكة المكرمة، ويتكرر ذكر خبر مماثل في أحداث سنة ١٣٤هـ «وهي آخر سنوات الحكم الأموي» بضرب الاميال بين المدينتين (ص ٤٥١-٤٦٠).

وأهمية هذا الطريق هي كونه ليس مهماً بالنسبة لأهل العراق فحسب، بل ولأهل ما وراءه من الاقطار الشرقية حتى أواسط آسيا، وبمرور الزمن اكتشف الحكام انه لا بد من تنظيم عمليات السفر الى الحجاز بإحداث منصب «إمرة الحج» وهي مهمة عالية الشأن، اذ كان الخلفاء يتولونها بأنفسهم، ولا سيما في العصر العباسي الأول، ثم صاروا يسندونها الى أحد العباسيين أو العلويين، مثل الشريف الرضي وأخيه المرتضى، وكان الى جنب ذلك وجود أمراء حج ينطلقون من الشام ومصر وغيرها.

ولكن بعد سقوط بغداد ونجاح المماليك في دحر المغول على يد الظاهر بيبرس في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، وانتقال الخلافة العباسية الى مصر، صار للركب المصري اهمية خاصة، كأهمية الركب العراقي في العصر العباسي، ولذلك اعتنى سلاطين المماليك به، وأقاموا له ديواناً خاصاً سموه «ديوان إمرة الحج» يتولاها كبار الشخصيات، وخصصوا له عدداً من الموظفين يرأسهم «الكاتب».

ثم ورث العثمانيون تلك المهمة بعد فتح مصر، وأبدوا اهتماماً مماثلاً بركب الحج، وأقروا التنظيمات التي أقامها المماليك،

بما في ذلك مكتب «كاتب امرة الحاج» التي تولاهما محمد بن عبد القادر الجزيري الحنبلي (ت ٩٤٣هـ) ثم تولاهما ابنه عبد القادر الذي صنف كتاب «الدرر الفرائد» الذي اشترت اليه في بداية هذا المقال.

وعلى أي حال فالذي يهمني في هذا المقال، هو ما يتعلق بالحج المصري، وليس هناك من شك بأن حجاج مصر كانوا يسلكون طريق البر عبر سيناء للوصول الى ارض الحجاز، وهو الطريق الذي سلكه الفاتحون المسلمون، ولكن باتجاه معاكس، غير ان الوضع قد تغير في اواسط القرن الخامس الهجري، حيث صار حجاج مصر يسلكون طريق ميناء «عيذاب» على البحر الأحمر، من حوالي سنة ٤٥٠هـ الى سنة ٦٦١هـ، بسبب سيطرة الفاطميين على مصر، وانقطاع صلة مصر بالخلافة العباسية.

ثم صار الصليبيون يتحكمون بفلسطين وبيعض ارض الاردن وبأجزاء من سيناء، مما جعل الطريق القديم محفوفاً بخطر عدوان الصليبيين على الحجاج، واستمر السفر بطريق البحر الأحمر الا ان الظاهر بيبرس رحمه الله، سلطان المماليك، نظم سير اول قافلة برية للحجاج وارسل معها كسوة للكعبة، ووضع لبابها مفتاحاً من ذهب،

خاصة وان السفر عن طريق عيذاب كان شاقاً لمروره أولاً بصحراء قاحلة «بين قوص وعيذاب» فضلاً عن خطورة عبور البحر الأحمر في سفن تحمل اكثر من طاقتها من الحجاج وبضائع التجار، وكان هذا هو الطريق الذي سلكه الرحالة الاندلسي ابن جبير سنة ٥٧٨هـ، وغيره من حجاج الاندلس والمغرب ايضاً (ص ٤٠٠-٤٠١، ٤٠٦-٤٠٧، ٤١٢).

وهكذا فإن العودة لاستخدام طريق البر استلزم تأسيس ديوان للحج من قبل المماليك، وتبناه العثمانيون من بعدهم، وأوكلت اليه مهمة تنظيم شؤون الحج، وإعداد ما يلزم من رجال ومعدات ومواد غذائية وغيرها مما يحتاجه المسافرون والموظفون والحراس ضمن الركب المصري، بما في ذلك فريق عربان القبائل التي يمر الطريق بأراضيها، وهم الذين يقدمون الجمال التي تحمل احتياجات الحجاج، الى جانب نقل بعض الأحمال التجارية، وفوق ذلك كانت هناك بعض الأحمال التي تُشحن عن طريق البحر من السويس والطور الى جدة، ومنها الى مكة المكرمة، وكذلك الى «ينبع».

والجدير بالذكر بأن ما كان يشحن بهذه الصورة يعود ثلثاه الى إمرة الحج، وثلثه

وقد بالغوا في العناية بأمن الطريق، حتى أنهم خصصوا جريات كبيرة للقبائل (كما أسلفنا) ورسموا مساراً للطريق يمر بمحطات محددة ينبغي الوقوف عندها، بل وقضاء مدة معينة في كل منها للاستراحة وتناول الطعام الذي يعده الطباخون الموكلون لهذه المهمة، ولاستقاء الماء من المناهل، ويتم ايقاد المشاعل ليلاً لتبديد الظلام، والتسهيل على الحجاج في حلهم وقضاء حاجاتهم. وصار بذلك للحجاج الامن على النفس والمال ايضاً.

■ ثالثاً: طريق الحج المصري عند ابن فضل الله العمري:

لقد تناول ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ، في كتابه المسمى «مسالك الابصار في ممالك الامصار»، طريق الحج المصري، وقال: ان الركب الشريف يخرج من القاهرة على أتم رؤية باهرة بالمحمل السلطاني، والسبيل المسبل، والخير المكمل للضعفاء والفقراء والمنقطعين، والماء والزاد والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين «اطباء العيون» والجراحية، في أكمل زي بالأعلام والطبول والأدلاء والأئمة والمؤذنين والجند والقاضي والشهود والدواوين، بطليعة وساقة وضوئية في

لعامة الناس، مع تحديد الأجور رسمياً، سواء بالنسبة للسفن، أم بالنسبة لنقل الجمال، ويبلغ عدد الأحمال المنقولة في هذا الشأن حوالي (٣٠٠٠) حمل، وأغلبها من المواد الغذائية والأعلاف، وبعض المواد الأخرى كالشموع والسلال (ص ١١٧٠)، (١١٨٦-١١٧٢).

ويتولى تدبير هذه المهام موظفون، لكل منهم مهمته كتابة وحراسة وما إليها، وذلك لقاء مخصصات نقدية محددة (ص ١١٨٧-١١٩٨).

وخلاصة القول: فإن حكام مصر من السلاطين والولاة، والسلاطين العثمانيين منحوا إمرة الحاج اهتماماً خاصاً، وصار من يتولاها، فيتولاها نيابة عن السلطان نفسه، وصار يحاط برسوم لا تقل عما يحاط به أداء الفريضة لكل من عزم على أدائها من غني أو فقير، وذلك بتأمين الأمن ووسائل النقل، والماء والطعام والعناية الطبية، الى جانب المرشدين الدينيين، ليس فقط لمن هم رعايا الدولة العثمانية، بل ولغيرهم من المسلمين كالمغاربة والتكروريين الأفارقة، بل شملوا بعنايتهم من ينضم الى الركب الشامي، وزادوا على ذلك عنايتهم بحجاج المشرق من رعايا دول المغول وحكام الهند (ص ١٢١٤-١٢١٨ وما بعدها).

أوائل الركب وأوسطه وآخره، ليسهل الطريق الى البيت الحرام.

واذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً، دقت الطبول والبوقات، ليؤذن للناس بالرحيل والنزول، فلا يعتاق احد فيبقى عرضة للأذى أو الخطف، ثم اذا ساروا ليلاً أو نهاراً يمشي وراءهم من الجند من يحفظ ساقبتهم من اللصوص وقطاع الطرق، ثم اذا نزلوا منزلاً كانت الامراء والجند على يقظة لمهاجم قد يهجم، واذا أمسوا دار الطواف على الركب بجوقة تشتمل على أضواء كثيرة ومعها الجند على الخيل بأسلحتهم، وينادي المنادي بإعلام الركب بأي ارض نزلوا ويوصيهم بالاحتراز وما ينبغي عليهم فعله عند التحرك للمرحلة القادمة (ص ١٢١٥).

ويستطرد الى القول: فمن رأى ذلك من ابناء القبائل هابه، وعلم بتيقظ اهل الركب لأموهم، ورأى قوة اهل الشوكة فيهم، فانكف طمعه وانقطع أمله، خصوصاً وما رتبته الملوك لقبائل الطريق رسوماً من الخزائن السلطانية، وجهاز المحمل الشريف بالنقود والخلع لشييوخهم واكابرهم، كعادة جارية تدفع كل سنة.

ولذلك اذا نزل الركب في ارض قوم، سارع المشايخ لتلقي المحمل وتقبيل

الارض، وتقبيل خف جمل المحمل طاعة للسلطنة، وأودعوا عدداً من ابنائهم رهائن لدى أمير الحاج لا يطلق سراحهم الا بعد الارتحال والتحقق من سلامة الحجاج من اي أذى أو سرقة شيء من متاعهم (ص ١٢١٥-١٢١٦).

أما الآن، فسأبدأ بإذن الله بالحديث عن طريق الحج المصري، بحسب المراحل التي حددها ابن فضل الله العمري، ثم اتبعه «في لمحة أخرى» بذكر مراحل الطريق كما وصفها الجزيري، فأقول: جرت العادة خروج حجاج مصر ومن ينضم اليهم من المغاربة والأفارقة، الذين يتألف منهم الركب، سواء أقل عددهم أم أكثر، يخرجون في حماية عدد كبير من العساكر «كما أسلفنا» علاوة على مجموعات العمال واصحاب الخدمات.

ويسير الطريق في خط محدد يمر بمواقع معينة وفق نظام معين، وذلك للاستراحة وتناول الطعام واستقاء الماء وترتيب تلك المواقع على الوجه الآتي:

١- يخرج الركب من القاهرة، فينزل «البركة» في مرحلة واحدة، فيقيم فيها ثلاثة أو أربعة أيام «وقد زيدت في العهد العثماني الى خمسة أيام أو أكثر عند الضرورة» وفي هذا الموقع ماء عذب.

٦- وبعد ذلك يتوجه الراكب الى «بر مدين» في اربع مراحل، وفيه ماء «مغارة شعيب» ولكنه ماء رديء -حسب قول ابن فضل الله العمري- غير انه ينسب الى شعيب عليه السلام، ومنه سقى موسى عليه السلام لأغنام ابنتي شعيب، كما في القرآن الكريم، والظاهر انه اصبح عذبا في عهد الجزيري.

٧- ويرحل الراكب الى موقع «عيون القصب» في مرحلتين، وماؤها ينبع من عيون ينبت حولها القصب، والاقامة فيها يوم واحد.

٨- ويصل بعدها الى «النبك» ويسمى «المويلحة»، على ساحل البحر، في ثلاث مراحل، وماؤها مالح ويسبب الاسهال.

٩- ثم يسير الراكب الى «الأزلم» في اربع مراحل، وماؤها كماء سابقه، وهنا يودع الحجاج بعض أزوادهم وعلف جمالهم، في خان بناه بعض الأمراء وجعل فيه حراساً، وذلك للاستفادة من تلك المواد في رحلة العودة.

١٠- ومنه يتوجه الراكب الى «الوجه» في خمس مراحل، وهو يقع في واد فسيح يفيض ماؤه ليلاً -وكأنه من النيل أو الفرات- حسب قول ابن فضل الله

٢- يرحل الراكب الى «السويس» في خمس مراحل، وماؤها مالح، ويقيم الراكب فيها يوماً واحداً.

٣- يصل الراكب الى موقع «نخل» في خمس مراحل ايضاً، وماؤه افضل من ماء السويس، وهو في برك، وهناك عمال مكلفون برفع الماء من الآبار لملء البرك، ويقيم الحجاج فيه يوماً واحداً.

٤- يتوجه الراكب الى «ايلة» في خمس مراحل كذلك، ويصل الى «رأس ايلة» وهو «العقبة» العظمى التي يتطلب صعودها مشقة كبيرة ويستغرق الصعود وقت مرحلة كاملة، ومنها ينزل الى «حجر بحر القلزم -اي خليج العقبة» فينزل على مائه ويقيم ثلاثة أيام الا اذا اقتضت الضرورة اكثر من ذلك، وفيه تتوفر بعض احتياجات الحجاج، كالزاد والعلف لمن يريد، كما تتوافر الركوبة لمن فقد مركوبه، وما الى ذلك، لأنه تقوم في هذا الموقع أسواق كبيرة لأصناف البضائع، مما قد لا يوجد حتى في المدن الكبيرة.

٥- ثم يصل الراكب الى «حقل» على ساحل البحر مرحلة واحدة، ويستقي من مائه وهو أعذب من ماء «ايلة».

العمري ولكنه «اي الماء» يشح نهاراً!!.

١١- وبعده يصل الى «أكري» الذي يسمى ايضاً «فم الضيعة» في مرحلتين، وهما أصعب ما في هذا الطريق من مراحل، وماؤها غزير سائغ يأتي من مسيل أحد الوديان.

١٢- وتليه «الحوراء» على ساحل البحر، في أربع مراحل، وماؤها يشبه ماء البحر، ولكن ترده الجمال.

١٣- ثم يصل الركب الى «نبط» في مرحلتين، وماؤه عذب بارد، ويرحل الركب الى:

١٤- «ينبع» في خمس مراحل، وقيم الركب فيها ثلاثة أيام، ويودع فيها بعض مقتنيات الحج للاستفادة منها عند العودة.

١٥- وبعدها الوصول الى «الدهناء» في مرحلة واحدة، وفيها ماء جار عذب ونخل وزروع.

١٦- وتليها «بدر» في ثلاث مراحل، وبها عيون نضاجة وجداول ومزارع وبساتين ويقربها «الجار» ميناء المدينة المنورة.

١٧- ومنها الى «رابع» في خمس مراحل، وماؤها مالح، ومنها يحرم الحجاج.

١٨- ثم «خليص» في ثلاث مراحل، وفيها بركة ماء شيدها احد الأمراء لتوفير الماء للحجاج.

١٩- ومنه الى «بطن مر» في ثلاث مراحل ايضاً، وفيه ماء، ومن هنا يتأهل الحاج لدخول مكة المكرمة عن طريق «عسفان» وفيه بئر ماؤها عذب.

٢٠- ثم يبلغ الركب «مكة المكرمة» في مرحلة واحدة، وقيم فيها ما قدر له ان يقيم، حتى يحين وقت الرحيل الى منى فعرفات، لأداء فريضة الحج، وفقاً لما هو مقرر في الكتاب والسنة، مما يجعل الحديث عنه خارج نطاق هذا المقال.

وخلاصة القول: ان هذا الطريق هو طريق الركب المصري في الذهاب والعودة، وهذه هي محطاته ومسافات مراحل، وفقاً لما ذكره ابن فضل الله العمري في منتصف القرن الثامن، اي قبل الجزيري بما يقرب من (١٣٠) سنة.

رابعاً: طريق الحج عند الجزيري:
والجزيري هو عبد القادر بن محمد الانصاري الجزيري الحنبلي «المتوفى في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري» الذي تولى وظيفة كاتب «ديوان امرة الحج»، بعد وفاة أبيه الذي تولى تلك الوظيفة سنين

عديدة حتى وفاته سنة ٩٤٣هـ.

وقد كان عبد القادر يرافق والده وهو صغير، ثم صار يساعده في عمله منذ سنة ٩٤٠هـ، فتدرب على مهام العمل في امرة الحاج، هذا وقد تسنى له منذ صغره الدراسة، اذ درس الفقه وما يتصل به من علوم فبرز فيها وأجازه العلماء بالتدريس والافتاء على المذهب الحنبلي (ص ١٢-١٣).

وقد صنف عدداً من الكتب الى جانب «الدرر الفرائد» منها «منازه المنازل ومناهج المناهل» و «خلاصة الذهب في فضل العرب» و «عمدة الصفوة في حل القهوة» و «الزجر عن الخمر»، علاوة على مجموعات شعرية «انظر ترجمته مفصلة في مقدمة الجزء الأول من الدرر الفرائد» وفي أعلام الزركلي.

اما بالنسبة لطريق الحج «وهو موضوع هذا المقال» فإنه لم يكتب بإيراد اسماء المنازل التي سبق وذكرها ابن فضل الله العمري، فإنه زاد على ذلك أموراً كثيرة، اذ تناولها من منظور آخر، اذ قسم الدرب المصري الى ارباع ومناهل ومنازل، فأرباعه ذهاباً وإياباً تسعة، بما فيه مسافة الطريق، بين المدينة المنورة وينبع، مما يسمى «الدورة» ومدتها في مقدار الربع لكامل

الطريق، والمقصود ان حجاج مصر عند وصولهم من مكة الى ينبع، يتجهون الى المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي والتشرف بالسلام على رسول الله ﷺ.

اما المناهل فهي تارة مناهل الارباع، وهي الكبرى، وتارة هي من موارد المياه بالطريق، وهي دون ذلك، والمنازل ضبطها بعض الباحثين في سنة ٨٦٦هـ، فجعلها منازل الطلعة بمناهلها فقط، موزعة على اربعة ارباعها، وجملة ساعات «الدورة» آنفة الذكر (٩٣) ساعة، وعليه فجملة عدد الساعات ذهاباً وإياباً هي (١٠٠١) ساعة (ص ١٣٠٢-١٣٠٤).

اما بالقياس الطولي، فإن فضل الله العمري قد تولى حسابه، فوجد ان المسافة بين القاهرة ومكة المكرمة تبلغ (٢٨٤) فرسخاً، وثلاث الفرسخ، وهي تعادل (٨٥٤) ميلاً (ص ١٢٣٧).

ولكن الجزيري لم يكتف بما قاله له غيره عن المسافات، فقام بنفسه بقياس الساعات التي يستغرقها قطع المسافات بين محطات الطريق، وذلك في سنة ٩٥٥هـ، قاسها بما تيسر له من آلة تسمى «منكاب» وهي بمثابة «الساعة» في زماننا فوجدها في الذهاب (٤٢٤) ساعة وثلثي الساعة،

ومثلها في الاياب، وتبلغ ساعات «الدورة» لزيارة المدينة المنورة حسب قياسه (٨١) ساعة وثلاث الساعة، وعليه فإن مجموع ساعات رحلة الركب المصري (٩٣٠) ساعة، اي اقل من قياس غيره بمقدار (٧١) ساعة.

كما ان الجزيري اورد بالتفصيل ذكر المنازل، وحدد ما سماه بدرجاتها مما يخرج عن اهتمامات القراء، اذ يتركز على اعتبارات فنية، ثم تناول تفاصيل كثيرة عن كل منزل ينزله الحاج فيصفه ويأتي بشيء من تاريخه ولناخذ على سبيل المثال ما يأتي:

١- الحديث عن المرحلة الأولى، وهو خروج الركب من القاهرة الى «الريدانية» ثم الى بركة الحاج، وهو يوم ١٨ شوال «او ما يقاربه من سنة الى أخرى» ويذكر مقدار ساعات المسير من الباب والخان الذي أنشأه أحد الباشوات الى البركة، وهي (٥) ساعات، اذ كان المحمل بعد خروجه من الباب ينزل في «الريدانية» ويقيم يوماً وليلة فيها.

٢- ثم يرحل الى البركة، ولكن قد ألغي «ويقصد الاقامة في الريدانية» وصار الركب لا ينزل الا بالبركة، ثم يصفها ويذكر ما فيها من النخل الكثير والبيوت

وزاوية لشيخ صالح «ذكر اسمه» وذكر من عمّر الزاوية من الملوك وأنشأ بجوارها بستاناً وبئراً، ثم ما استجد بشأنها، وتحدث عن سوق البركة وما قاله المؤرخون عنها، ومنهم المقرئ في كتابه «المواعظ والاعتبار»، ومن زارها من الأعلام، مثل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، مما غطى خمس صفحات (ص١٣٠٩-١٣١٣).

ويقول: ان البركة هي حل وداع الاحباب، اذ فيها يودع الحاج من جاء لوداعه من اهل وأصحاب، ويزيد على ذلك بإيراد نماذج شعر قيل في الوداع (ص١٣١٥-١٣١٨).

وهنا ينتقل الجزيري الى الحديث عن أمر آخر وهو ما سماه «الدرك» والمقصود هو مسؤولية أمن المنطقة وخفارتها، مما سبقت الاشارة اليه، وزاد على ذلك قوله: ان مسؤولية أصحاب الدرك تشمل التعويض عما تقع سرقة من امتعة الحجاج من مناطقهم (١٣١٣-١٣١٤).

ويختم الحديث بقوله: ان الرحيل من البركة في سنة ٩٥٥هـ، كان وقت طلوع الشمس من يوم السبت الموافق ١٣ شوال، ويضبط مواقيت الحركة والنزول بما يسميه «درجات - ص١٣١٨)، ولعله يقصد درجات

انحراف الشمس من خط الافق والله اعلم.

٣- يمر الركب بعد مغادرة البركة بموضع يسمى «البويب» وهو مضيق بين جبلين صغيرين، وهذا الموضع هو باب لمدخل المضيق الذي تقع نهايته عند «عقبة أيلة» ثم يورد تفاصيل كثيرة عن هذه المرحلة، ويسمى كل موضع يمر به ويستطرد الى ذكر معلومات مفصلة عن طبيعة الأرض وأهلها، وعن المباني التي شيدت في انحائها لخدمة الحجاج، وتلك التي أنشئت لأغراض عسكرية او تجارية، وكذلك مناهل الماء وتسمية مسؤولي الدرك فيها (ص١٣١٩-١٣١٢).

٤- ثم يمر الركب بأرض تسمى «التيه» الذي تاه فيه بنو اسرائيل، وهو ينتهي في موضع على ساحل البحر الذي يسميه «بحر فاران» الذي غرق فيه فرعون، وفيه عيون ماء تجري في قنوات من الرصاص، ويقول: انها الموضع الذي آنس عنده موسى عليه السلام النار، وفي كثير من هذه المواضع مبان «سماها خانات» شيدها الحكام لإيواء من يسلكون هذا الطريق مع برك للماء، ويستطرد الى الحديث عما تقدمه الدولة من مال لمن يتولى رعاية تلك الخانات والبرك، علاوة على ألبسة التشريف والمواد الغذائية

(١٣٢٥-١٣٣٠).

٥- ويستمر الجزيري في وصف الطريق، ويشير الى موضع يسمى «النقب» والصعوبات التي تكتنف الوصول اليه - رغم الجهود التي بذلها الحكام في تسهيل وعورة مسالكه، وبناء ما يلزم لتأمين راحة الحجاج فيه، ويبدو ان هذا الموضع يسمى «وادي أيلة» حسب تسمية المؤرخ المقرئ الذي يعتبره اول حد الحجاز.

وهنا يطيل الجزيري الحديث ويستطرد الى ذكر كل شاردة وواردة عن هذا الموقع من التاريخ القديم حتى زمانه، ثم يتوسع في وصف مدينة أيلة، وتاريخها، وما فيها من مبان وأسواق وما الى ذلك، ثم يقول: ان الوصول اليها من البركة استغرق (٩) ايام، ومدة الاقامة ثلاثة ايام، وان الحجاج ينتفعون مما في أسواقها من مختلف انواع الغذاء، وبها ينتهي الربع الأول من الطريق (ص١٣٣١-١٣٣٨ و ١٣٤٦-١٣٤٩).

٦- اما الربع الثاني من الطريق فيشتمل على (١١) منزلة، ودركه في بدايته لبني عطية، ثم لبني عقبة، ويمر بدوار «حقل» ثم بموقع «ظهر الحمار» وبموضع «الجرفين» على ساحل البحر، وبموضع

«الشرفة» وبمضييق «الدار» ويفيض الجزيري في وصف ما يراه من آبار الماء والبرك والمباني القديمة، وبعض مساجد (١٣٥٠-١٣٥٦).

٧- ويشير الى وصول الراكب الى «ارض مدين» بشاطئ البحر، وهي كثيرة الاشجار، وبها آبار وفيها موضع «ام رجيم» و «عيون القصب» وهي على اربعة أيام من العقبة، وتقع على ثلث الطريق الى مكة المكرمة، (ص١٣٥٧-١٣٦٢، ١٣٧٠).

والملاحظ ان الجزيري كثيراً ما يستطرد الى ذكر عدد من الاشخاص الذين تقع الاشارة اليهم عند الحديث عن بعض مواضع الطريق، اذ يعتمد الى ايراد ترجمة مفصلة لكل منهم (ص١٣٧٢-١٣٧٥)، ويفعل مثل ذلك عند الاشارة الى الدرك المسؤول عن الطريق فيطنب في الحديث عن المخصصات النقدية والعينية التي تعطى لهم، كما يفصل الحديث عن قبائلهم (ص١٣٧٥-١٣٧٦).

٨- بعد عيون القصب يتجه الراكب الى «الشرمة» التي فيها عين ماء، ومنها يسير الراكب الى «المويلج» ويسمى «النبك» ايضاً، وفيه قلعة كبيرة، لأجل

حفظ بعض حاجات الحجاج وأموال التجار، ويشير الى حفر الابار فيه حتى صارت المويلج من أحسن مناهل الحجاز، ومنها يتجه الراكب الى «دار السلطان» ثم «الأزم» (ص١٣٧٧-١٣٨٦).

٩- ومن الأزم يبدأ الربع الثالث من الطريق، ونهايته عند ينبع، وهو أطولها، وأسوأها من حيث توفر الماء، وسمي الموقع بهذا الاسم لخباثة ارضه وكثرة سباخه وملوحة مائه، وفيه خان محرس عسكري، تحفظ به ودائع ركب الحجاج لحين عودتهم، ورغم ملوحة مائه فإنه يعتبر من المناهل الكبار في توفير الماء للحجاج (ص١٣٨٧-١٣٩٧)، ومدة هذا الربع (٨) أيام.

وبعد «الأزم» يصل الراكب الى «اكرى» في طريق متسع حسن السلوك، ويذكر الجزيري عدداً من المواضع الصغيرة حتى يقترب من منزل «الوجه».

١٠- يقترن اسم مدينة «الوجه» بالرحبة، ويبدو ان الجزيري في سفرته عام ٩٥٥هـ لم ينزل ركبته في الوجه لعدم توفر الماء فيه ولا في الرحبة رغم اهتمام الدولة بحفر الآبار وصيانتها

(ص ١٣٩٦-١٣٩٧).

١١- ثم يأتي موقع «العرجا» وهو اسم الماء على جانب واد يبعد مرحلة واحدة عن «الوجه» ثم يليه موقع «النهدين» وهما جبلان صغيران، ثم «اكري» وهي فضاء واسع ومرعى، وماؤها مالح وارضها سبخة، وعندها تنتهي منطقة «درك قبيلة بلي» واقام الركب فيها يوماً وليلة.

١٢- ثم «الحريرة» وهي أول درك أمير ينبع، وفيها تتلى المراسيم السلطانية بتأييد ولاية الشريف على ينبع، وصدر الأوامر اليه بحسن السيرة والعدل في الرعية، وحماية ركب الحاج، وما الى ذلك، وقد جرت العادة ان يخرج اليها أمير ينبع او أحد أبناء اسرته لملاقاة الركب، ثم تأتي بعدها «الحوراء» وهي من مناهل الحجاز، ويبيت فيها الركب (ص ١٣٩٨-١٤٠٦).

١٣- ويليه «العقيق» أحد مضايق الحجاز، وقربه «صحين المرمر» وهو منهل مشهور فيه الكثير من الآبار التي حفرها كبار المسؤولين (ص ١٤٠٦-١٤٠٩)، ويمر الطريق على موقع «الخضيراء» ثم الى «دارين البقر».

١٤- وجرت العادة قدوم أمير ينبع اليها

للسلام على أمير الحج، ثم يتم دخول الركب الى ينبع في موكب حافل بالزيينات وبالاحتفالات، وفيها يسبغ أمير الركب على أمير ينبع ألبسة التشريف المرسله من السلطان، ويمنح أقاربه ومن معه من رجال القضاء والحكم خلقاً خاصة من أمير الركب نفسه (ص ١٤١١-١٤١٣).

هذا وتبعد ينبع عن المدينة المنورة مسافة أربعة أيام (ص ١٤١٣)، وهي آخر الربع الثالث من أرباع الطريق، ويستغرق السفر اليها من عقبة أيلة (١٦) يوماً (ص ١٤١٥).

والجدير بالذكر (بل والطريف ايضاً) ان أمير ينبع يتحمل دفع رسومهم ومصروفات لجماعة امير الحاج القادم من مصر مقابل إلباسه بدلة التشريف في كل سنة، كما يدفع مبالغ معينة للأدلاء الذين يرافقون الركب، ولسكرتير «دوادر» امير الحج، ومدير المستودع «خازندار» وللمباشرين، ولقاضي المحمل وشهوده، ولمن يسمون «جاويفية» ولحامل العلم «الصنجدق» ولقائد المحمل وأتباعه، ولمسؤول مطبخ أمير الحج واعوانه، ولمن يعتنون بالأغنام المرافقة للركب، ولغلمان حامل «طست» الذي يغتسل فيه أمير الحج، ولمن يتولى

خدمة الخيول والسراجين، ولبواب امير الحج، ولمن يتولى نصب الخيام، ولمن يقوم بتقديم الطعام والعكامة الذين يخدمون حيوانات النقل، وجماعة السلاح، وللقائمين بحمل المشاعل والطبول، ولفريق الفراشين والنفاطين والطباخين والسعاة الهجانة، وللإمام والمؤذن المرافقين للركب، ولخدم الاصطبل، هؤلاء كلهم يتقاضون مبالغ معلومة من أمير ينبع (ص ١٤١٧-١٤١٨)١.

١٥- وفي ينبع مستودعات يترك فيها الحجاج ما لا يحتاجونه في مكة من أمتعتهم، فيأخذونها عند العودة، وما زاد على ذلك يبيعهونه (ص ١٤١٩)، والاقامة فيها عادة ثلاثة أيام يتوجه الركب بعدها نحو مكة المكرمة في الربع الرابع من الطريق في ١٣ مرحلة، والدرك فيها لبني «ابراهيم الصيارف» ويسمون «العياشة» (ص ١٤٢١-١٤٢٢)، ويمر الطريق بموقع «الدهنا» وفيها عيون جارية ومزارع.

١٦- ثم يتوجه الركب الى بدر وحنين (وهي غير حنين المذكورة في القرآن الكريم) وتعتبر من مناهل الطريق، وبدر تبعد عن رابغ اربع مراحل (ص ١٤٢٣-١٤٢٥، ١٤٤٤).

١٧- ثم يسير الركب الى «ودّان» من نواحي الفرع، وهي على مرحلة واحدة من «الأبواء» مقدارها ثمانية أميال، وبعد اربعة ايام يتوجه الى رابغ (ص ١٤٤٧).

١٨- ورابغ هي ميقات الاحرام لحجاج مصر والشام والمغرب، في موضع يسمى «جحفة» وهي قرية جامعة بمنبر «اي تصلى فيه الجمعة» على ثلاث مراحل من مكة (ص ١٤٤٨-١٤٤٩).

١٩- ومنها يتوجه الركب الى «الجريانات» وهي تلال رمل، ثم الى «قديد» وفيها يحتفل امير الحج بإعداد أحواض من الجلد يملأها بالسكر المذاب لسقاية الحجاج بمناسبة وصولهم قرب مكة المكرمة، كالذي كان يفعله من سبقه في بركة «خليص» وهي تبعد ثمانية اميال من قديد، وقد جددت عين خليص مما ادى الى ازدهار الموقع (ص ١٤٥٧-١٤٦١).

٢٠- ومن خليص يتوجه الركب الى عُسفان، وهي على يومين من مكة المكرمة، ثم الى «العقلة» وفيها جرت العادة ان يحضر ابن أخي الشريف او أحد أقاربه لملاقاة امير الركب والسلام عليه، ويحتفل عادة بقدمه وبإلباسه ألبسة

وهو عند وصول الركب الى بدر، يتحول الطريق المتجه الى المدينة لزيارة المسجد النبوي والتشرف بالسلام على رسول الله ﷺ، مما يزيد في رحلة العودة مسافة قدرها (٨١) ساعة وثلاث الساعة، وهي المسماة «الدورة» (ص١٣٠٨، ١٥٥٨-١٥٧١).

وجرت العادة على الإقامة في المدينة ثلاثة ايام للزيارة وتوزيع الصدقات التي يحملها أمير الركب وغيره على المستحقين، ولأجل الراحة من مشقة السفر، يرحل الركب بعدها حتى يصل الى «الدهنا» احدى محطات الطريق الذي قدم به من مصر، فيسلكه بالنظام نفسه حتى وصوله الى القاهرة.

❖ خامساً، الخاتمة:

يتضح مما تقدم اهتمام المسلمين البالغ في مختلف العصور وفي مختلف الظروف، بشعيرة الحج، وانهم بذلوا اقصى ما يمكن بذله من جهود لتسهيل السبل لمن يريد ادائها، رغم الصعوبات البالغة التي تكتنف السفر في الماضي وجسامتها.

ولكنهم على الرغم من جميع الظروف والعقبات الطبيعية والاعتبارات الآنية، من وقوع الحروب، واختلال الأمن، وتقلبات

التشريف، ويستمر مندوب الشريف بصحبة أمير الحج، ثم يمر الركب بموضع «مر الظهران» وهو ما يسمى «وادي فاطمة» ثم يحضر شريف مكة بنفسه، في خيل كثيرة لملاقاة امير الحج، يعود الشريف بعدها بصحبة امير الحج المصري الى «الزاهر» بضواحي مكة، حيث مقر نزوله، وعندها يفارقه الشريف متوجهاً الى مكة (ص١٤٦٤-١٤٦٥).

٢١- ثم يدخل امير الحج مكة ليلاً بمشاعله وفوانيسه للطواف، وفي الصباح يجرى الاحتفال الكبير، حيث يرتدي الشريف ألبسة التشريف، في موكب حافل بأعلامه وطبوله، ولكن هذه الاحتفالات عرضة للتغيير تبعاً للظروف (ص١٤٦٥-١٤٦٦)، وينزل امير الحج في المدرسة الاشرفية المنسوبة الى قايتباي مدة اقامته بمكة.

ثم ينشغل أهل الركب بأداء فريضة الحج والعمرة وبالصلاة في المسجد الحرام، وقد جرت العادة ان تكون الإقامة بمكة وما حولها عشرين يوماً (ص١٥٥٧)، يرحل الركب بعدها قبل الفجر متجهاً الى المدينة المنورة الى البلد الأمين، ولكن بفارق واحد،

وكذبها المشركون، والحمد لله رب العالمين.

● كشف المراجع:

١- ابن جبير الاندلسي (ت ٦١٤هـ) الرحلة، لايدن (هولندا) ١٨٥٢م.

٢- الجزيري، محمد عبد القادر (ت حوالي ٩٧٧هـ) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطرق مكة المعظمة، الرياض ١٩٨٣.

٣- الخالدي، خالد، طرق الحج وتنظيماته وآثارها السياسية والاقتصادية في جزيرة العرب، رسالة دكتوراه غير منشورة في جامعة الملك سعود ١٩٩٦.

٤- الزركلي، خير الدين، الاعلام، طبعة القاهرة ١٩٥٤.

٥- العمري، ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ) مسالك الابصار في ممالك الامصار، القاهرة ١٩٢٤.

٦- الغماسي، محمد بن احمد الحسني (ت ٨٣٢هـ) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، القاهرة.

٧- ابن فهد، عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ) اتحاف الوري بأخبار ام القرى، القاهرة ١٩٨٣.

٨- ابن فهد، عبد العزيز بن عمر (ت ٩٢٢هـ) غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، مكة.

٩- الماوردي، ابو الحسن (ت ٤٥٠هـ) الاحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٠.

الجو، فإنها لم تستطع ان تؤثر سلباً على رغبة المسلم، العالم والجاهل، والغني والفقير، والصحيح والسقيم، والمرأة والرجل، فجميعهم كانوا يضحون بالغالي والرخيص، مادة ومعنى، فيلبون داعي الحج، وان نأى المزار، وطال الطريق، وافتقد الأمن، او انتشر المرض، ووقعت المجاعات، فكل منهم يرنو ببصره الى اجابة نداء المولى سبحانه، اذ قال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج: ٢٧، والاستجابة لدعوة نبيه وخليله ﷺ الوارد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ابراهيم: ٣٧.

وعدد المستجيبين لدعوة الرحمن على مدى العصور، في ازدياد منقطع النظير، حتى بات البيت رغم توسيعاته المتتابة، ما عاد يتسع لهم، بل ضاق فضاء عرفات، ووديان منى عن استيعابهم، وفقاً لاعتبارات القدرة المكانية، ولكن القدرة الإلهية قد تكفلت بالتوسيع لاستيعاب جميع القاصدين من ضيوف الرحمن، وهذه من المعجزات التي لا سبيل لنكرانها، وان نفاها الكفرة